أمريكا تعاملنا بما نستحق

الدكتور عبد الستار قاسم

24/ آذار/ 2003

إذا سُئل عربي عن أسباب دعم الولايات المتحدة لإسرائيل في صراعها مع العرب يجيب غالبا بأن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة قوي جدا ويصعب على الإدارة الأمريكية الإفلات منه أو التغلب عليه. وربما يضيف المجيب بأنه سيكون بإمكان العرب استقطاب الدعم الأمريكي في حال تراخي الصهاينة. الأقلية اليهودية ذات مال وفير وتنظيم جيد وتملك طاقة مالية كبيرة وقدرة على النفير وحشد النشطاء القادرين على التأثير على رجال السياسة الأمريكيين. هذه إجابة سخيفة وساذجة وهي شبيهة بالتبرير القائل بأن إسرائيل تهزم العرب لأنها أقوى منهم ولو لم تكن كذلك للقنها العرب الدروس القاسية.

هذا المنحى في تفسير الظاهرة السياسية لا يقتصر على الحكام ومعاونيهم ووسائل إعلامهم وإنما يمتد إلى العديد من المثقفين والكتاب العرب الذين يسهبون في تفاصيل النفوذ الذي تتمتع به المنظمات الصهيونية والجمعيات اليهودية في العالم وبالأخص في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي تصوير الأخطبوط المالي الصهيوني الذي يستعمل لحشد التأييد السياسي لإسرائيل ودعم اقتصادها وقدراتها التقنية والعسكرية. هناك تركيز كبير على مجموعات الضغط الصهيونية ودقة تنظيمها وأدائها إلى درجة أنها تحولت إلى كابوس يحيق بالعرب ويمنع عنهم ورود المياه الأمريكية. وقد تغلغل هذا المنحى إلى صفوف الناس بحيث يثير النفوذ الصهيوني لدى العامة التعجب والحيرة والشعور بنوع من اليأس.

العاجز يصنع القوى التي تجعل من عجزه أمرا حتميا لا مفر منه ولا يمكن التخلص منه مهما حاول، وعليه ألا يحاول لأن تلك القوى هي التي تقرر مصيره ولا رادّ لحكمها. إنه يصنع في ذهنه قوى قهره لتكون له مبررا أمام الآخرين خاصة الذين ينتظرون منه القيام بمجهود نحو الخلاص من مأزق أو تحد أو حيرة.

يصعب على المرء الاعتراف بضعفه، وقد يكون الأمر صحيحا بالنسبة للجماعات والدول. لكن المسألة في كل دولة عربية محصورة بشخص واحد لأن كل دولة يحكمها شخص وغالبا ما تنطبق عليه التحليلات النفسية كما تنطبق على أي شخص آخر. تظهر هذه الصعوبة خاصة لدى العاجز الذي لا يحاول تعديل الأوضاع أو التأثير عليها أو تغييرها ويكتفي بالتمنيات والأدعية ويضع أمله في فنجان الحظ أو أبراج الصحف. إنه لا يحاول تغيير واقعه بيديه لأنه لا يثق بنفسه ولا بالقدرات الإنسانية المتوفرة لديه ولأن نفسه أضعف من أن تضعه في مواجهة العالم الخارجي المليء بالزخم والحيوية والمنافسة والتحدي والعطاء وتفضل البقاء في أسر التردد والجبن والانسحاب بعيدا عن الحياة النشطة المبدعة. وربما تفضل النفس هذه الاستغراق في الشهوات ومتع الحياة الدنيا على حساب الذات والآخرين ضاربة بعرض الحائط القضايا العامة ومكتفية باهتمامات شكلية توحي بأنها تبذل جهدا حقيقيا نحو الإنجاز الجوهري. وبدل أن تضع الشخصية من هذا القبيل الأمور في نصاب علمي وتقويم موضوعي تهرب إلى التبرير القائم على تحميل المسؤولية للآخرين وتلجأ إلى تفسيرات غيبية تتزاحم فيها الأوهام،

وإلى شعارات مليئة بالضجيج دون محتوى أو مضمون. فبدل أن تقوم بخطوات عملية نحو مواجهة العدو أو التحدي تركز على الخطابات والكلام الساخن والتصريحات النارية.

لا يشكل الضعف أو الاعتراف به أزمة نفسية بالنسبة للشخص الذي يعمل على تغيير واقعه لأنه يحاول الخروج مما هو فيه. إنه يدرك قوة العالم خارج نفسه أو قوة العوامل الخارجية التي تعيقه أو تسيطر عليه، وليس لديه الاستعداد للاستكانة أو الاستسلام لها ويحشد طاقاته من أجل التغلب عليها. هذا شخص يحترم نفسه ويحترم الإنسان في داخله ويعي المدى البعيد الذي يمكن أن توصله إليه طاقاته. وهو القادر على الإنجاز وتحقيق الآمال والطموحات، وعلى التغلب على الصعاب ودحر عدوه وكسب احترامه في نفس الوقت.

تتمثل مأساة الخنوع الإنساني في ذلك الذي يعمل دائما على صنع أوهام العجز وإسقاط عيوبه على الآخرين أو اللجوء إلى تفسيرات يجعلها خُمُرا تعمي عنه العيون. إنه لا يواجه الحقائق بل يهرب منها، يعي عجزه ويهرب من مواجهة نفسه والآخرين به، يحاول إيهام نفسه والناس بأنه صاحب عقل وتدبير وصولة وجولة. إنه العظيم الذي لولا المعيقات لصنع المعجزات، والقادر الذي لولا المتآمرين لسحق الأعداء، والحكيم الذي لولا المتربصين لنهض بالأمة حتى لا يطاولها أحد. هذا ليس درب خيال، فمن يستمع إلى وسائل الإعلام العربية الرسمية يجد أن أغلبها تنطق باسم الحاكم بهذا المنطق. تزدحم بلادنا بالحكماء والمعلمين الأوائل والعقلاء وأصحاب الحصافة والرأي السديد الذين لم يتركوا معركة ضد عدو أو نحو التقدم إلا هزموا فيها.

في مثل حالنا مع الدول المعادية أو تلك التي نأمل منها الوقوف معنا ولو جزئيا وبالأخص الولايات المتحدة كأننا نطلب من العدو أن يقيد نفسه ليفسح لنا المجال للعمل. ففي تفسير قدرات إسرائيل على النيل من فلسطينيين يقف مسؤول فلسطيني على سبيل المثال مبررا أن إسرائيل استغلت الظروف وجندت العملاء ويطالبها بوقف الاغتيالات. بينما عليه أن يعترف بالتقصير الفلسطيني في إعداد الناس لمواجهة مخططات الأعداء وبالتقصير في وضع برنامج يتم تنفيذه عمليا لملاحقة الأعداء. في التبرير يحاول المسؤول أن يهرب من مسؤولياته وأن يلوم العدو لأنه يقوم بالسياسات التي تتلاءم حسب تقديره مع مصالحه. إنه تفكير عقيم لا يورث إلا الهزائم ولا يثير إلا السخرية.

على مدى عقود والعرب ينتظرون الرئيس الأمريكي راجين منه الإنصاف في قضاياهم وعلى رأسها قضية فلسطين. يأتي رئيس ويذهب رئيس ويبقى الرجاء خائبا ولا تجد الدعوات طريقا نحو الانبلاج، لكن اللعنات على مجموعات الضغط (اللوبي) اليهودية تبقى مستمرة. رجاؤنا عند الرئيس الأمريكي خائب حتى الآن ولعناتنا على الصهاينة لم تنفتح أمامها أبواب الاستجابة بعد. لا مانع، سنستمر في المحاولة ما دام باب البيت الأبيض ليس مغلقا، والرئيس لا يسمع من ساكت.

ليت العرب يبوحون بما قدموه حتى يستجاب الدعاء. الكلام وحده لا يكفي، إنه مجرد ذبذبات تذروها الرياح مهما حمل من قوة المنطق. ربما ينفع المنطق والحجج الكلامية في جلسة حوار فكري أو تمرين ذهني لكنه من الصعب أن يأتي بمردود عندما يكون عنصرا خاليا من الواقع المادي. المنطق جميل وقوته تسحر الألباب لكنني لم أجد في تاريخ العلاقات الدولية تراثا يستند على المنطق وحججه وقوته فقط، ولم أجد حتى في الفلسفة السياسية المتعلقة بعلاقات الدول ما يرى في قوة المنطق ما يأتي بالحقوق أو يقود إلى عدل أو قسط أو إنصاف. يبدو أن العرب من الناحية التاريخية يخرجون عن النص التاريخي ويعيشون اللاتاريخ الذي يفقدهم ارتباطهم

بالواقع ويجعلهم يعيشون حالة أشبه ما يكون بأحلام اليقظة. إنها حالة مغادرة الواقع لصالح أوهام أو أحلام أو تخيلات يرغبون في أن تكون الحقيقة.

هناك قضايا رئيسة من الواضح أن العرب يتجاوزون أهميتها في نظرتهم للعلاقة مع الدول الغربية بخاصة الولايات المتحدة ولا يكترثون كثيرا في دورها في صياغة العلاقات الخارجية. يقع على رأس هذه القضايا ما يلي:

أولا: تفكير التمني والتفكير العملي. تفكير التمني محكوم بانفصال عن الواقع ومرتبط بغيبيات خارجة عن الذات تماما دون أن تكون قناعات إيمانية. إنه تفكير يوهم ممارسه بأن الأمور ستتحسن فجأة لسبب غير مفهوم ولكن له علاقة بقوة راعية غير مرئية تأخذ باعتبارها موازين العدالة ونصرة المظلومين. تمتد جذور هذا التفكير إلى قرون خلت وتميزت بدرب ثقافي أقرب ما يكون إلى الشعوذة والانفصال عن الذات وتوهّم الحقيقة. إنه أشبه ما يكون بالتفكير السحري الذي يصر دائما على أن الحقيقة عبارة عن وَهَم وديدنها الباطل.

تبنى العلاقات الدولية على أسس مادية ملموسة وليس على أوهام أو رومانسيات، وهناك حقائق وقضايا موضوعية تؤثر في السياسة الأمريكية الخارجية ولا شأن لها برجاء عربي أو عوامل إحباطه النفسية. ربما تنظر الولايات المتحدة بنوع من الأسف لحال جائع لكنها ليست مستعدة لتوفير أكثر من كسرات خبز أو لقيمات لسد رمقه. وهذا لا ينطبق على أمريكا فقط وإنما ينطبق على الدول والشعوب الأخرى مع فروقات هامشية. ولعل في السلوك العربي دليلا على ذلك. تعاني دول عربية مثل الصومال وموريتانيا والسودان من ضيق الحال ومن المجاعات أحيانا ولكن المساعدات العربية تبقى قليلة وموسمية إلى الحد الذي تغلغلت من خلاله إسرائيل. وإذا قيس حجم التبذير العربي الاستهلاكي على ما يُنفق في المواجهة ضد إسرائيل نجد أن التبذير (ولا أقصد الاستهلاك المحسوب) أكثر بكثير من المرصود لتحرير الأرض العربية. ولنا في النهاية في أنفسنا عبرة فيما نتوقعه من الولايات المتحدة.

ثانيا: احترام الذات. لم يثبت العرب لا للولايات المتحدة ولا لغيرها أنهم يحترمون أنفسهم وذلك لعدة أسباب منها:

1- لم يعمل العرب على استغلال ثرواتهم وطاقاتهم وقدراتهم المختلفة من أجل تطوير أنفسهم إنتاجيا وبنائيا بشكل فاعل على الرغم من إمكانية القيام بذلك بسهولة. ركز العرب على التطوير الجدي والخلّاق في ناحيتين: أجهزة المخابرات الداخلية وما يترتب عليها من قمع للمواطن والتحديث الاستهلاكي وما يترتب عليه من تبديد للثروة. تملك أمم أخرى مقدرات وإمكانات أقل لكنها قطعت أشواطا واسعة في التنمية والتحديث.

2- لا يحترم العرب مواطنيهم ويحيطونهم بالأجهزة الأمنية التي تراقب كل صغيرة وكبيرة وتحاسب عليها. المواطن العربي عبارة عن مطية مهمشة لا قيمة لها ولا ثقة بها، والمثقف والمفكر مضطهدان إلا إذا قبلا أن يكونا أداتين بيد صاحب السلطان.

3- تعرض العرب للعديد من الهزائم العسكرية ولم يقرروا بعد الثأر لأنفسهم. يؤمن العربي بالثأر ولا يقبل الدونية لكن ليس حيال الغرباء وإنما حيال أهل البيت. إنه مستعد أن يقاتل

ابن عمه أو جاره عشرات السنوات، لكنه أمام إسرائيل وغيرها من الدول المعتدية لا يجد في جعبته سوى الشكوى للأمم المتحدة أو الولايات المتحدة. الأمة في مواجهتها للمتربصين أشبه ما يكون بطفل مغنج يرى أمنه دائما في الانكفاء إلى الذات أو في حضن أمه.

4- لم تتحرك الشعوب العربية حتى الآن للإطاحة بجلاديها مما أعطى انطباعا لدى الأمم الأخرى والحكومات أن العرب يعشقون الذل والإهانة وأنهم يفضلون العيش بمذلة على الحياة بإباء.

5- لم يرتق العرب على كافة مستوياتهم الشعبية والثقافية والرسمية والفكرية حتى الآن إلى درجة التعاون القائم على أسس منهجية ومهنية على الرغم من إمكانية القيام بذلك. فضل العرب البقاء مشتتين على الرغم من أن قوتهم بوحدتهم، وشوهوا فكرة التئامهم بمنحى غير معرف اسمه التضامن العربي. لا يسلم الكتاب والمفكرون من هذه التهمة وهم الذين يدعون صباح مساء إلى التغيير وإعادة ترتيب البيت العربي. وفي ذلك ما يشير إلى أنهم لم يصعدوا بما فيه الكفاية حتى الآن نحو الوعي العملي الذي يترجم الأفكار إلى نشاطات تتبلور إلى واقع. والتهمة تصل إلى الشعوب التي تئن من وطأة الظلم ولكنها استجابت لتأثيرات سياسات عربية من ضمنها بث مشاعر الكراهية والبغضاء غير المبررة بين الشعوب العربية.

6- يكثر العرب من الكلام ويقللون من العمل المفيد. إذا عدنا إلى السجلات التي تنطق بتصريحات المسؤولين ووعوداتهم وتهديداتهم نجدها تختلف إلى حد كبير جدا عما تم عمله على أرض الواقع ومختلفة تماما عن النتائج. وبهذا اشتهرنا في العالم أننا أصحاب أفواه كبيرة وعصيّ صغيرة إن وجدت. ومع كثرة الكلام وقلة العمل تطورت لدينا عقلية التبرير والتي يمكن اختصارها بفن الكذب على الشعوب باختلاق الذرائع والحجج المغلف بالكلام المنمق. هذا ما يعرفه العالم عنا وهذا ما تردده إسرائيل في وسائل إعلامها كلما خرج مسؤول عربي بتصريح هادر.

حزب الله هو الوحيد الذي شذ حتى الآن عن السلوكيات العربية التقليدية ولهذا كسب احترام العدو والصديق. لا علاقة لهذا الاحترام بالمحبة والرغبة في التعاون، لكن له علاقة في تخطيط السياسات وتنفيذ القرارات لما تأتيه من ردود فعل فعالة من قبل الحزب. لقد فرض الحزب نفسه فأخذه الآخرون بالحسبان رغم أنوفهم.

ثالثا: لا تتناقض المصالح الأمريكية في البلاد العربية مع دعم أمريكا للكيان الصهيوني. المجال مفتوح عربيا أمام الاستثمارات الأمريكية ونهب الثروات، ومن الصعب أن تتم عرقلة الأمريكيين على المستويات الرسمية والشخصية والاقتصادية. على العكس، يحظى الأمريكيون على كافة مستوياتهم بالاحترام والتبجيل حيثما ذهبوا في هذا الوطن الكبير. من خلال تجربتي، عبّر لي أحد الأمريكيين مرة عن الوضع بقوله أنه هو مجرد "صائغ" وضائع في وطنه ومكانته لا تتعدى مكانة الجرذون، أما في الوطن العربي فهو عبارة عن رئيس

جمهورية يتهافت الناس على التقرب منه وتوجيه الدعوات له، وأنه لو شاء ألا ينفق درهما من جيبه على طعامه وتنقلاته لاستطاع ذلك.

أمريكا تصول وتجول عسكريا في البلاد العربية. إنها تقيم القواعد وتجري التدريبات العسكرية والمناورات المشتركة وتبيعنا كميات ضخمة من السلاح من أجل أن نستعد لحروبنا الداخلية. إنها تتعاون مع إسرائيل عسكريا وعلميا وتزودها بما يلزم من السلاح المتطور لتبقى مهيمنة عسكريا على المنطقة وتستنزف الطاقات العربية كيفما تشاء. لا تناقض بين هذا وذاك ولا عار ولا تهديد للمصالح. فماذا تبغي الولايات المتحدة أفضل من هذا الوضع؟

بالرغم من كل هذا هناك من يحاول أن يلقي المسؤولية على ما يسمى باللوبي الصهيوني أو مجموعات الضغط اليهودية. هذا هروب من الواقع ودفن للرأس في الرمال وعدم قدرة على مواجهة الحقيقة. العالم أجمع يدرك تماما من نحن وما نحن فيه وعلى رأسه الولايات المتحدة التي تنخر مخابراتها صفوفنا وأجسادنا وبيوتنا، وفقط نحن الذين نسعى دائما إلى تغطية الشمس بالغربال. اللوبي الصهيوني ليس قويا بل نحن الضعفاء، وأمريكا ليست في غي عن مصالحها بل نحن الذين نتغابى، والعالم من حولنا يدرك أننا نهين أنفسنا فيرى أن في احترامه لنا مضيعة. وفي النهاية يفرض المرء على الآخرين الطريقة التي عليهم أن يعاملوه بها، وحصاده لن يختلف عن جنس ما زرعه. بالتأكيد يدرك هذا كل الساسة والمسؤولين، فهل من بادرة خير تجمع الأمة حول أفق جديد؟